مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد التاسع، يونيو 2008
Journal of Alasmarya University
Volume 9, June 2008

في الإعجاز العلمي

د. سعيد سالم الفاندي*

مفهومه وشروطه

في كل كتاب بشري نلحظ خطوطاً فاصلة بين أسلوبين: أحدهما يقصد العلم البحت المجرد من الأثر في الوجدان، والآخر أدبي يرمي إلى إثارة النفس وتطهيرها من آلامها وأدرانها وهو ما اصطلح عليه بالأسلوب الأدبي، ولكن أسلوب القرآن يخالف هذا المنحى الفاصل بين خصائص العلم، وسمات الأدب، فهو قرآن في مضمونه وأسلوبه ومقاصده، جامع غير مفرق لجميع المعاني التي تغذى روح الإنسان وعقله ووجدانه.

ولا يكاد يختلف الباحثون في القرآن حول هذا المدلول الشامل لأسلوب القرآن ومنهجه، ولكن الاختلاف في تعيين الجزئيات التي يظهر فيها العلم الباحث في الظواهر الجامدة والحية، كما اختلفوا في تعيين مظاهر الإعجاز البياني في مفردات القرآن وتراكيبه، كما أن المجالات التخصصية لهؤلاء الباحثين ذات أثر بالغ في تطرفهم أو تفريطهم بأن يروا امتزاج العلم والأدب في أسلوب القرآن.

ولعله من السذاجة أن ننهج في دراسة الظواهر الشاملة كالقرآن منهج التحديد، فنتساءل هل في القرآن إعجاز علمي؟ إننا بذلك نغفل عن مصدر القرآن وهو الذات الإلهية التي وسع علمها كل شيء، ونغفل عن مقصد نزول القرآن وهو هداية الناس كافة، ونتجاهل آليات الاستدلال في الخطاب القرآني، وهي توظيف كل ما يمكن أن يعقله الإنسان من حقائق في الأرض والسماء والإنسان والأحياء لإظهار حقيقة صدور

---

* جامعة الجبل الغربي.

القرآن عن الخالق، وكونه كتاب إعجاز بالمعنى الواسع العميق.

ولكن من حق كل باحث أن يتحير، ويتساءل أيكون في هذا التعبير الذي أتفحصه دلالة إعجازية علمية تحيره عندما ينظر في تلك الدلالة أو غيرها من منظور الإعجاز الأدبي، ثم تطمئن نفسه إلى إدراك ما ترجح لديه من معنى في أية صورة من صور الإعجاز، وهذا الاختلاف في الرأي ليس بين إنسان وإنسان فحسب، بل عند إنسان واحد في مستويات فكرية تدبرية متفاوتة، وهو من أقوى الأدلة على الإعجاز القرآني؛ لأن قيمة كل كتاب فيما يثيره من اختلاف، لا فيما يدل عليه من توافق في الرأي، وحسبك بالقرآن مثيراً للعقول، ومنيراً للبصائر، وفي حالتي الإقرار أو التحير، فإن القلب مطمئن إلى صدور ذلك النص من العليم الخبير، بأثر الهداية، وروحانية الوحي. ولكن لماذا يؤثر كثير من المختصين في العلوم البحتة والعلوم القرآنية، تسمية مظهر الإعجاز العلمي في القرآن بالإشارات العلمية، أفي ذلك دلالة على خفائها أم علامة على إيجازها؟.

والحق أنها قد تكون خفية ثم تظهر في زمن بعد زمن، وفكر أنضج من فكر، ولكنها في جميع الأحوال موجزة، وبين الخفاء والإيجاز تلازم يرسخ مقصداً للقرآن وهو الهداية والإرشاد، ويفرق بين كون الاستدلال بالعلم وسيلة لذلك الاسم، شأن القرآن في توظيف الاستدلالات التاريخية والبرهانية والتشريعية والبيانية، ومن وجه آخر فيه مراعاة للتوافق بين كون النص القرآني مطلقاً محرراً من الزمن، وبين فهم الإنسان للقرآن وفق زمنه وبيئته، فهو يستدل بحقائق علمية يدركها الناس في زمن قد يعلو بالعلم والبحث عن زمن سابق، تقول هند شلبي: «فالإعجاز في القرآن يتمثل في عدم خضوع نصه -أي حقائقه- إلى سلطان الزمن، إنها حقائق مطلقة، حاضرة كاملة، لابد للزمن في تكوينها وتنقيحها»[1].

ماذا يحدث لو صرح القرآن بحقائق الإعجاز العلمي في الكون والإنسان والحيوان، وسمعها القرشيون في زمن اقتصار الفهم على رواية الأشعار، ومذاكرة أيام العرب في الذاكرة التي لا تجاوز جزيرتهم؟ إن ذلك يشجعهم على التحقق من كونه سحراً أو أساطير الأولين، مع أنه حوى علوم الآخرين، بل إنه لو ذكر تلك الحقائق العلمية بوجه صريح؛ لكان الإعجاز العلمي على حساب الإعجاز الأدبي، ولكن جاء الاكتناز بالإشارة للحقائق العلمية، حتى تكون من قبيل الرمز الأدبي، وتلك حقيقة لا

1- التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق، منشورات الجامعة التونسية (1406 /1985) ص3

تغيب عن العلماء الأدباء، ولا عن الأدباء العلماء، وإن كانت قد تغيب على من وقف على شاطئ العلم، أو على من تمسك بعدوة الأدب.

إذن هي إشارات وحقائق، حتى لا ندعي بأنها مفصلات العلم أو نظرياته،من أجل ذلك قال زغلول راغب النجار: « إن الإشارات الكونية في القرآن هي من ضرب المثل، لا من قبيل الحصر ؛ لأن الكشف العلمي، والمعرفة الإنسانية بالكون ومكوناته جعلها سبحانه في داخل نطاق القدرة الإنسانية»[2]. وقال العقاد من قبل: «ومن الخطأ أن نتلقى كل نظرية علمية كأنها حقيقة دائمة، نحملها على معاني القرآن؛ لأن النظريات العلمية لا تثبت على قرار بين جيل وجيل»[3]، وفي تحذير العقاد من اعتماد النظريات مظهراً للإعجاز ما يحقق شرطاً أصيلاً في تنزيه القرآن في التفسير عن الاحتمالات، ولكنه ليس فيه منع من تفسيره على ضوء الحقائق العلمية، والذين لم يتمعنوا في أقوال العقاد في ضبط التفسير بهذا الشرط ظنوه ممن ينكر الإشارات العلمية في القرآن.

ومن شروط اعتماد الإشارات العلمية أن تكون متضمنة في دلالة القرآن، وليست مقحمة بخاطر المفسر، أو ما يأخذ بعقله من حقيقة علمية لا يدل عليها لفظ الآية ولا تركيبها، لا كما فعل طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر الذي حشد فيه معلومات أكثرها لا يمت إلى مدلول النص القرآني بصلة، وكان مشجعاً لبعض باحثي العلوم الإسلامية في عصره أن ينكروا الإشارات العلمية إنكاراً لم يستطيعوا إقناع غيرهم به، مع أن لهم مكانة رفيعة في الفكر الإسلامي من أمثال محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر في زمانه الذي قال: «ما يفرح به بعض الشيوخ من الاهتداء إلى آية تؤكد اكتشافاً علمياً هو ربط القرآن الخالد بنظريات علمية قد تتغير، وكون القرآن يشير إلى آيات كونية لا يعني أن نحوله إلى كتاب للتقنية، بل هو كتاب هداية للنظر في آيات القرآن»[4]، ويلاحظ أن دقة تحليل قول المراغي، يؤدي إلى كونه لا يعارض الإشارات العلمية معارضة تامة، بل يبالغ في الالتزام بالرابط بين الآية القرآنية والحقيقة العلمية، انظر إلى قوله: «وكون القرآن يشير إلى آيات كونية لا يعني أن نحوله إلى كتاب للتقنية» إلا أن أكثر الباحثين المعاصرين صنف الشيخ المراغي ضمن فريق المعارضين للإعجاز

2- آيات من الإعجاز العلمي للقرآن، القاهرة، مكتبة الشروق ط3 (1423 /2002) ص43.

3- الفلسفة القرآنية، مصر ط دار الهلال: ص 188.

4- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون: 2 /603.

العلمـي، ومـن ضـوابط التفسـير الـذي يكشـف عـن إعجاز العلم في القرآن، ألا تصادم الحقائـق العلمـية سياق الآية القرآنية، بأن يقتطع جزء منها فيستدل به على إشارة علمية تكون متصادمة مع جزء آخر من الآية، أو مضادة لمعنى آية أخرى في المعنى ذاته، وإن كانت في موضـع آخر من سورة أخرى ؛ لأن القرآن وحدة معنوية، يفسر بعضه بعضاً، ومـن أمـثله ذلـك الاختراق ما اعترف به الباحث الطبيعي محمد ثابت الفندي، حيث قال في تفسـير قـوله تعـالى: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الـرحمن: 33، 35] «يطلـق كـثير من الناس خطأ، وقد كنت منهم أن قول الله تعالى في سـورة الـرحمن» ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ مـن دلائل انطلاق الإنسان عبر الفضاء، ولكن الحقـيقة عـندما نفهم معنى أقطار تماما نجد أن المعنى إشارة واضحة للتعجيز كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾، أما النفاذ من أقطار الأرض، فما من شك أن معـناه اخـتراق الكرة الأرضية عبر باطنها المستعر[5]، ومن الاختراقات التي عارضت السـياق تفسـير زغلـول النجار لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الـرعد: 41]، حـيث رأى أن الآيـة تشـير إلى كـون «القوة الطاردة المركزية الناتجة عن دوران الأرض، قد أدت إلى انبعاجها قليلاً عند خط الاستواء وانبساطها قليلاً عند القطبين خاصة القطب الشمالي»[6].

يعـترض أحمد أبوحجر على ذلك، بأنه خرق للسياق فالآية موصولة بآية قبلها ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الـرعد: 40-41]، وموصـولة بالآية بعدها التي تبين سنة الله في إهلاك المعاندين الجاحدين ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الـرعد: 42]، فالمعنـى المتحصـل مـن مجمـوع الآيـات: «صـائرون إلى زوال وأنهـم مغلوبون زائلون أو ينتصر المسلمون، وتتسع رقعة الإسلام وتنحسر أرض الكفر»[7].

ومـن تلـك الضـوابط ألا يعارض ما يدل على الإشارة العلمية ما صح من الشرع

5- السماوات السبع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971 ف: ص 39.

6- محاضرة للدكتور زغلول راغب النجار ألقيت بتاريخ 19 /2 /1973 ف في الموسم الثقافي / أبو ظبي، ملحق بكتاب تفسير الآيات الكونية لعبد الله شحاتة، القاهرة، دار الاعتصام،1977 ف، ص 272.

7- التفسير العلمي للقرآن في الميزان، أحمد أبوحجر، دمشق، دار قتيبة، ط أولى (1411 /1991)

عـن الـنبي ﷺ مـن صريح القرآن وصحيح السنة، فقد تكون بعض تلك الإشارات تأملية بطـريق الخاطـر، فتصـبح تعـبيراً عن اندهاش المتأمل في مخبره أو في إحساسه برحابة الكـون وجمـال الطبـيعة، ودقة إتقان البارئ في صنعها، فيأنس بشعور يظن أنه من العلم الحـق، ويجـد مـن ظواهـر ألفـاظ القـرآن مـا يـؤيده وهـو مدلول على بطلانه في آيات صـريحة أو أحاديـث صـحيحة، وقد وقع بعض المسلمين العالمين في ذلك المنزلق لا سيما القدماء منهم، والمتبع لأقوالهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يـس: 38]، يـرى مدى خطئهم في توهم انتقال الشمس حول الأرض الثابتة مع أن ذلك معـارض لآخـر الآيـة نفسـها الـتي تحمـل دلالة الحركة من الأرض والشمس وجميع الأجـرام ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يـس: 40]، ولقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبـياء: 33]، مـا أكثـر خواطـر العلمـاء، يقـول ألبرت أينشتاين: « إن أعظم خاطرة يمكن أن تجيش بها النفس البشريـة وأجملـها لهـي تلـك الـتي يستشـعرها الإنسـان عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكونـي والإظـلام ... إن الـذي لا تجـيش نفسـه لهذا ولا تتحرك عاطفته حي ميت»[8]، ويسـاعد علـى تـرك الانضـباط بهذا الشرط كون الإشارات العلمية تأملية هادئة، وليست تفصـيلية تقـود إلى قـوانين ضابطة وبالجملة يلزم أن تكون الإشارات العلمية الإعجازية للقـرآن غـير دالـة علـى نظـرية محتملة، بل مثبتة على أنها حقيقة من حقائق العلم، ولا تكـون مـتمحلة على حساب دقة ووضوح دلالة القرآن، ويلزم أن توافق السياق القرآني، وصـراحة مدلـوله، ومـوافقة لمقاصـده، نائـية عن التفصيل الذي هو من جزئيات تفسير الظاهرة العلمية، وليس من مرامي الإشارة القرآنية.

ويمكـن النظـر إلى الآراء الـتي تـبدو معارضـة للتفسـير العلمي وإعجاز إشارات العلـم في القـرآن، على أنها ثورة ضد طوفان الاجتهادات العلمية المضيعة لهذه الشروط وما في حكمها، حتى قال محمد عزة دروزة: « ومما يدل على دقة المفسر في فهم كتاب الله تعـالى، ورجاحة عقله رفضه وإنكاره استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الآيات القرآنية، للتدليل على صدق القرآن وإعجازه»[9]. ويحاول تقوية معارضته بقوله: « ولا يصـلح لمسـلم مهمـا حسـنت نيته أن يدعي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف جميع ما

8- عبد الله شحاتة، المرجع السابق ص 266.

9- عبد المجيد المحشب، اتجاهات التفسير في العصر الحديث، عمان، ط 3 1982 ف ص 61.

تضمنته آيات القرآن»(10).

ولكن معلوم أن الرسول ﷺ لم يبين جميع معاني القرآن، حتى الحكمية والبيانية منها، لما للعقل من إذن من الشارع في التفاعل مع النص القرآني، عبر الزمان والمكان، وخوفاً من أن يطغى التفسير العلمي على التفسير الأدبي للقرآن، آثر أمين الخولي معارضة احتواء القرآن على الإشارات العلمية، مع أننا يلزم أن نأخذ هذا الاعتراض على أنه مطلق التسليم من صاحبه، فدوافعه تقحم أولئك المفسرين بالعلم على ضوابط إشارته، يقول عميد التفسير الموضوعي للقرآن في عصره: «و أما ما اتجهت إليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحي بيان صدقه أو إعجازه أو صلاحيته للبقاء ... فربما كان ضره أكثر من نفعه»(11) لاحظ قوله «فربما». وبمثل ذلك الدافع الذي يؤثر العناية بالأسلوب الأدبي للقرآن، ينطق لسان عبد الكريم الخطيب الباحث في بيان القرآن فيقول: «إننا في غايتنا إلى الكشف عن إعجاز القرآن لن يكون طريقنا إليه ... هذا الطريق الذي يزحم القرآن بمفردات الكشوف العلمية ... فإن ذلك يذهب بكثير من جلال القرآن وروعته»(12) فيمكن حمل قوله على تفرغه للبحث في المنحى البياني في فهم الإعجاز القرآني، ونعيه على غير المحققين في كشف الإشارات العلمية، المفرطين في شروط تحصيلها.

ولعل المعارض للإشارات العلمية الذي لا نستطيع تأويل قوله بغير محض المعارضة هو الشاطبي صاحب الموافقات، ولكنه انزعج من حشودات الفخر الرازي للآراء العلمية في القرن السادس وما قبله، وفي أكثرها تنكب عن التحقيق، فدفع ذلك الشاطبي إلى رفض التفسير العلمي للقرآن فضلاً عن إدراك إعجاز إشاراته، التي نظر إليها وكأنها من إشارات أذواق المتصوفة لا من نتائج أنظار العلماء، استمع إليه وهو يقول: «إن كثيراً من الناس يتجاوزون في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعات ... وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح»(13).

10- اتجاهات التفسير في العصر الحديث 62.

11- التفسير معالم حياته، منهجه اليوم، مصر، جماعة الكتاب، 1944 ف ص 19.

12- المصدر نفسه ص 19.

13- الموافقات في أصول الشريعة ، بيروت ، دار المعرفة ط2 (1395 /1975) 3 /347.

بـل إننا نلمح في عبارات المصرحين بالإشارات العلمية، الاحتراس من ذلك التجاوز، فهذا الطاهر ابن عاشور وهو من المؤيدين يقول ناظراً إلى الإعجاز العلمي على أنه جزئي، قد تحويه آية قرآنية ينبهر بها العقل، ولكنه غير مقصود به إظهار عجز المعاندين « إن هذه الجهة من الإعجاز لم تثبت للقرآن بمجموعه، إذ ليست كل آياته، ولا كل سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن، وغير حاصل به التحدي »[14]. وقال عبد العزيز إسماعيل وهو من الباحثين في الإعجاز الطبي: « يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إذا اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها »[15].

ونادى محمد سعيد البوطي بضرورة أن تفهم الدلالة القرآنية بمنظور الشمول الذي يستوعب مراعاة إفهام الأولين والآخرين والعالمين والعامين في الخطاب القرآني فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ [نوح: 16]، « فالعامي يفهم منها أن كلاً من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض ... أما الباحث المتخصص في شؤون الفلك، فيفهم منها أن القمر جرم مظلم، وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي يشبهها بالسراج »[16].

ولم يستطع أكثر المستشرقين إغفال عظمة القرآن في زيادة دلالاته بإشارات العلم، فأقروا بأسبقية القرآن إلى الانسجام مع حقائق العلم، وتثويره للعقل في التأمل والنظر في النفس والكون والأحياء، وذلك من أعظم البراهين على سلامة النص القرآني من الخطأ والتحريف، بقول دينسون روس: « لقد كانت المعارف التي يملكها أغلب الأوربيين عن الإسلام وعلى مدى عصور طويلة مستمدة مما وضعه المسيحيون المتعصبون ... فما كان حسناً في الإسلام كان حظه الإهمال »[17]. ويقول جوستاف لوبون: « والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشاف العلم »[18]، ويصرح المستشرق المسام جرينييه الفرنسي الذي كان عضواً في مجلس النواب: « إنني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، والتي درستها من صغري،

14- التحرير والتنوير، تونس، ليبيا، دار التونسية للنشر، دار الجماهيرية: 1 /104.
15- الإسلام والطب الحديث، مصر ط،1357 هـ ص3 من المقدمة.
16- من روائع القرآن، ط3 1972، ص 136.
17- عبد الله شحاتة، المرجع السابق ص 11.
18- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي 1969 ف، ص 126.

وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت؛ لأنـي تيقـنت أن محمـداً ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة، من قبـل أن يكون له معلـم أو مــدرس مــن البشـر »[19]، ويـتحـدث الطبيب موريس بوكاي عن تجربته مع الآيـات الكونـية: « لقـد قمـت أولاً بدراسـة القـرآن الكـريم، وذلـك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ... وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث»[20].

ولم يستطع محـرر مـادة قـرآن في دائـرة المعارف الإسلامية إلا الإقرار باحتواء القرآن على تلك الإشارات العلمية المجهولة في دلالتها لدى من تنزل في عهدهم القرآن أول مـرة « كـثيراً مـا تـتحدث السـور المكية وأوائل السور المدنية في القرآن عن بعض الظواهـر في الطبـيعة وحـياة الإنسـان باعتبارها آيات تدل على وجود الله في كل مكان، والخـير الـذي يفـيض بـه الإنسـان، ... وأكثـر تلـك الآيـات تواتراً آيات خلق السماوات والأرض وخلـق الإنسـان وتكاثـره، وسـطوع الشـمس والقمـر والـنجوم، واختلاف الليل والـنهار، ونـزول الغـيث، ودوام الطبيعـية واستقرارها ... وليست لهذه شكل معين ولكنها تمـتاز بمضـمونها ومعـناها، ومـن الأمثلة البديعة على هذه الفقرات الآيات 24، 32 من سورة عبس ... وانظر أيضاً سورة المؤمنون الآيات 17، 22، 78، 80، والنبأ 6، 16 »[21].

الإشارة الطبيعية

لمـا كانت الطبيعـة صفحـة منظورة أو مستشعـرة لحس الإنسـان اتسعـت مسـاحة الإشـارات إلى حقائـق مظاهـرها وبعـض خفاياهـا في القـرآن الكـريم، لتكون مجالاً من مجالات الاستدلال على صدور هذا الكتاب الهادي إلى صراط الله المستقيم، وقد صرح الله في كـتابه بقصـده إلى هـذا الاسـتدلال فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصـلت: 53]، وقـال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمـران: 190]، وقـال

19- محمد عزت إسماعيل، التبشير والاستشراق.

20- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، طرابلس، ترجمة: جمعية الدعوة الإسلامية، ص 13.

21- موجـز دائـرة المعـارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات المتحدة، ط أولى (1418 / 1998ف): 26 /8233.

تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

والآيات في هذا المعنى متوافقة متعددة، ومن الآيات التي أشارت إلى أصل خلق الكون ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]، ثم يستطرد القرآن مبرزاً أهمية خلق الجبال في تثبيت القشرة الأرضية، وأهمية السماء للأرض، وكون الشمس والقمر والأرض وبقية الأجرام تدور في أفلاكها فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 31-33]، لقد كانت للقدماء محاولات موفقة لإدراك تلك الإشارات في الآية الأولى ؛ وذلك يعمق تأملهم في دلالاتها الإشارية غير الخفية، فنقل ابن كثير عن المفسرين من الأسلاف: «وقال سعيد بن جبير بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقها الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء»[22]، ويقول زغلول النجار من المعاصرين: «فقد كان هذا الجسم الأول الضخم المعقد البناء في حالة غير مستقرة سرعان ما أدت إلى تفككه، وأدى إلى نشأة هذا الكون في صورته الحالية ... وإن أقدم أثر للحياة ظهر على الأرض منذ ثلاثة آلاف مليون سنة، وظهرت أول ما ظهرت الحياة النباتية، وتلتها الحياة الحيوانية، وكلاهما ظهر لأول مرة في الماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]»[23].

ولا بد من ربط آية الرتق والفتق السابقة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، يقول في فهمها الفخر الرازي: «حين قصد الله تعالى أن يخلق منها (أي الأجزاء المتناثرة في الكون) السماوات والشمس والقمر كانت مظلمة، فصح تسميتها بالدخان، لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة، عديمة النور»[24].

22- تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار المعرفة (1400 /1980): 3 /177.

23- عبد الله شحاتة، تفسير الآيات الكونية، ملحق محاضرة زغلول النجار ص 218.

24- مفاتيح الغيب، بيروت دار الكتب العلمية، ط أولى 1990 ف، 27 /91.

ويقول زغلول النجار: «فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الأصل في مادة هذا الكون هو غاز الهيدروجين الذي اتحدت ذراته في درجات حرارة عالية جداً، وتحت ضغوط كثيرة لتكون مختلف العناصر المعروفة»[25]. ويقول موريس بوكاي: «الدعوى بوجود كتلة غازية ذات جزئيات، فكذلك يجب تفسير كلمة دخان إذ يتكون الدخان عموماً من قوام غازي»[26]. ويقول بوكاي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: 31]: «ويصف علماء الجيولوجيا الحديثون تعرجات الأرض بأنها تثبت الأجزاء البارزة التي تتنوع أبعادها من الكيلو متر إلى عشر كيلو مترات، وهي ظاهرة التعرج تتيح ثبات القشرة الأرضية»[27]. ولا بد من الجمع بين إشارة هذه الآية وإشارة قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7]، حيث يقول زغلول النجار: «ويؤكد العلم التجريبي هذه الحقيقة، وأن كل ارتفاع فوق سطح اليابسة له امتداد في داخل القشرة يزيد بأضعاف عديدة تتراوح بين (10–15) ضعفاً على هذا الارتفاع فوق سطح الأرض، تبعاً لكثافة صخوره، والصهارة المنغرس فيها»[28]. ويقول عبد الله شحاتة في الآية 33 من سورة الأنبياء سابقة الذكر، والمتوافقة مع قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]: «كما يشير القرآن إلى بعض الظواهر الفلكية في تحديد مسار الشمس فهي تجري ومعها سائر أجرام مجموعتها بسرعة تبلغ عدد مئات الأميال في الثانية»[29].

وفي ظاهرة الرياح اللواقح يقول شحاتة، في إظهار الدقة العلمية اللامحة في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الحجر: 22]، «وقد ظن فريق من العلماء أن الآية تشير إلى تلقيح الرياح لبعض النباتات كما هو معروف، ولكن هذا المعنى لا يربط الجزء الأول من الآية بجزئها الثاني، وهو إنزال الماء العذب، فالآية تشير إلى ما تسببه الرياح من تسخير السحاب وإنزال المطر، وإثراء الحياة فتفرغ في الشحن الموجبة للسحب»[30]، ومن الإعجاز العلمي كذلك ما كشف عنه من تلاقح النبات وأنه

25- عبد الله شحاتة، المصدر السابق ص 286.
26- موربس بوكاي، المصدر السابق ص 163.
27- المصدر نفسه ص 208.
28- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن، مكتبة الشروق، ص 6.
29- تفسير الآيات الكونية ص 19.
30- المصدر نفسه ص 21.

أزواج: ذكر وأنثى، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: 3]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: 53]، وقال تعالى في هذا المعنى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 36]، ويدخل في ذلك سوالب وموجبات مكونات الأشياء الحية الأخرى والجمادات عند التفاعل بينها، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

وفي قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: 5]، وفي قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور: 44]، لم تتضح الومضة العلمية للآيتين، وما في معناهما إلا بعد استخدام الإنسان للسفن الفضائية، يقول عبد الله شحاتة: «وحين انفتح أمام الإنسان باب الوصول إلى القمر، ورحل إليه مرة بعد أخرى رأى نفسه ينطلق في مسارات منحنية أو متعرجة، ولا يسير في خطوط مستقيمة، وعندما صعد رواد الفضاء جو الأرض، نظروا إلى الأرض فرأوها قبة زرقاء معلقة في الفضاء وأصبح في مقدورهم تمييز الخط الفاصل بين الليل والنهار حول محورها»[31].

وقد تحير المفسرون الأولون في الجمع بين المرج والفصل في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 20-19]، وبالأقمار الصناعية والتجارب العلمية ثبت أن بحار العالم يتميز بعضها عن بعض في خصائص التركيب من لون وملوحة ودرجة الحرارة وغيرها من الخواص، وهما لا يمكن امتزاجهما، فكل بحر يحافظ على طبيعته وصفاته، فهما منفصلان من حيث تميز كليها بخواصه، وممتزجان بانتقال الماء بينهما، وصار ملتقى المائين من البحرين متقابلاً على هيئة ضلعي المثلث، وتكون النقطة الفاصلة بين خواص كل بحر هي رأسي المثلث، كما ينطبق ذلك بصورة أوضح على التقاء البحر المالح بالنهر العذب، تبعاً لقانون المد السطحي (SURFACE TENSON) وهو أن كل سائل يحتفظ باستقلاله في مجاله، لأن تجاذب الجزئيات، يختلف من سائل إلى آخر[32].

ومن الضروري أن يستدعي تفسير آيتي الرحمن استحضار المعاني الإشارية لآية الفرقان 53 وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ

31- تفسير الآيات الكونية ص 20.

32- وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، مصر، دار المختار، ص 124.

﴿أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ [الفرقان: 53] التي يقول في استيضاحها متحدثاً عن ماء البحر وماء النهر: « هذا الماء ليس ماء البحر، لكنه ماء يسميه العلماء (مويلحاً) ماء قليل الملوحة، وهو يعمل كحاجز حقيقي، يفصل بين الماء العذب من جهة، والماء المالح من جهة أخرى، وكل وسط من هذه الأوساط له صفاته الطبيعية والكيميائية الخاصة، وله أنماط الحياة التي تحيا به، والكائنات لا تتحرك من منطقة إلى أخرى، إذ لا يستطيع الكائن الحي أن ينتقل، ولو انتقل يموت ولكنه بفطرته لا ينتقل من مائه فهو محجور »[33].

وقد تكون بعض الدلالات القرآنية محمولة على المجاز عند الأولين، ولكن تفسيرها بالحقائق العلمية يكشف عن كونها موضوعة على أصلها من الحقيقة، كما في دلالة كلمة تعرج التي تحمل على معنى مستعار للارتفاع، ولكنها في الدلالة العلمية حقيقة السير في خطوط منحنية، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: 2]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: 14]، فالحركة في الفضاء بعد الخروج من الغلاف الجوي للأرض: « تتسم في مسارات منحية والحقيقة أن الفضاء لا يعرف الخط المستقيم »[34].

وتأول المفسرون القدامى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25] بمعنى خلقنا: « عبر عن خلقه وإيجاده بالإنزال »[35]؛ ولكن العلم يثبت أن الإنزال على حقيقته، فإنه يستحيل أن يكون خلق في الأرض؛ لأن تكوين ذرة واحدة منه تحتاج إلى طاقة أضعاف طاقة المجموعة الشمسية، وقد رجمت الأرض عندما كانت كومة من الرماد قبل تمام تكونها بوابل من النيازك الحديدية، وبحكم كثافة الحديد استقر في صلب الكرة الأرضية التي صارت كتلة من الحديد والنيكل[36]، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾. والإيساع حقيقي لا مجازي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47]؛ يقول النجار: « والكون في تمدده يزداد الفضاء بين مجراته بحيث يبقى حجم المجرات ثابتاً، وعلى ذلك فإن مكاننا المنعزل في هذا الركن

33- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن: ص 21.

34- عبد الله شحاتة، المصدر السابق ص 19.

35- المحرر الوجيز لابن عطية، الرباط، المجلس العلمي بقابس، 1990 ف: 15 /427.

36- زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن ص 89.

من الفضاء يزداد عزلة كلما ابتعد جيراننا عنا »[37].

وجعل الجبال أوتاداً ليس مجازاً بل حقيقة، وقد تكرر إبراز مهمة الجبال وكونها ليست الأرض في سورة النازعات: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: 32]، وفي سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 6-7] وفي لقمان: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: 10]، وفي الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: 31].

الإشارات الحيوية

هناك تلميحات قرآنية عن حياة النبات والحيوان والإنسان، شحنت بها آيات كثيرة، لا يصح أن تفهم إلا مجموعة يتمم بعضها بعضا، أو تفسر كل آية نظيراتها، وقد كشف القرآن الكريم عن أصل الحياة، وكان في ذلك تزكية لبعض الآراء العلمية القديمة، وتوافق مع الحقائق الثابتة فقال تعالى بعد بيان أصل الكون في بيان أصل الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]، يقول موريس بوكاي: « فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ... فالماء هو العنصر اللازم لأية حياة نباتية ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: 53] إن الكلمة بمعناها الثاني، أي ذلك الذي يعني (سائلاً) دون أي تحديد مستخدمة في شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أي حيوان ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور: 45]، سيؤدي فيما بعد إلى أن الكلمة تنطبق أيضاً على السائل المنوي»[38]، يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6]، وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: 8].

وهناك آيات كثيرة تتحدث عن أهمية الماء عنصراً رئيساً في إحياء النبات واستمرار نموه من مثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: 99]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: 10-9].

وقد سبق القرآن الكريم العلم الحديث إلى تقرير حقيقة وجود الجماعات

37- عبد الله شحاتة، تفسير الآيات الكونية ص 280.

38- موريس بوكاي، المصدر السابق ص 212.

الحيوانية وأن ذلك من الانسجام والضرورة الحيوية إلى حد تشبيههم على وجه الحقيقة لا المبالغة بالأمم البشرية، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

يقول بوكاي بعد ذكره للدراسات السلوكية للحيوانات التي دلت على وجود جماعات حيوانية حقيقة: « ولكن لم يتم اكتشاف تفاصيل هذه التنظيمات بالنسبة لبعض الأنواع إلا منذ عهد قريب» ثم يستشهد بنموذج النحل: « إن أحسن مثال مدروس وأكثر مثال معروف هو بلا جدال مثال النحل الذي ترتبط بسلوكه أسماء فون فريشي VonFRISCH ولورنز LORENZ كنبرجن Tinbergen الذين حازوا لهذا السبب على جائزة نوبل في عام 1973 »[39]. ويقول معقباً: « عندما يريد أخصائيو الجهاز العصبي أن يعطوا أمثلة أخاذة عن النظام المعجز الذي يتحكم في السلوك الحيواني، فإن الحيوانات التي ربما تذكر أكثر الأمر هي النحل والعناكب والطيور»، وللنمل أهمية في صرامة نظامه، ودقة عمله، وشدة تعاونه، وهو الذي سميت به أيضاً سورة كما سمي بالنحل والعنكبوت، فقد قال تعالى في التصريح بلغة النمل الغريزية النادرة، وهي تقابل لغة النحل الذي يخاطب عن طريق الرقص ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 18]، فعبارة النملة قوية في مضمون الدلالة إلى درجة فهمها سليمان النبي الحكيم ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: 19].

وفي آية تكون اللبن آية على توافق القرآن والعلم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66]، يقول بوكاي في معناها: « تجدون علماً في حيواناتكم الماشية: إننا نعطيكم شراباً مما يوجد في أجسامها أي ما يأتي من التلاحم بين محتوى الأمعاء والدم لبناً صافياً، يسير الابتلاع على من يشربونه» هذا هو المعنى الميسر، أما المعنى العلمي الدقيق، فيعبر عنه بقوله« تأتي المواد الأساسية التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيميائية تحدث في القناة الهضمية، وتأتي هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء، وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيميائي، فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة ... والغدد الثديية هي تفرز

39- موريس بوكاي، المصدر السابق ص 318.

مكونات اللبن، وتتغذى هذه الغدد إذا جاز القول بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي إليها بواسطة الدم الدائر، الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية ومغذي الغدد الثديية منتجة اللبن يغذي أي عضو آخر، كل شيء يحدث هنا إذن ابتداء من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجذر الإمعائي نفسه، هذه المعلومة المحددة، تعد اليوم من مكتسبات الكيمياء وفسيولوجيا الهضم»[40].

أما الإشارات العلمية القرآنية المصورة لخلق الإنسان، وتطوره في الرحم، فإنها من الوضوح والدقة إلى درجة تؤهل برهان المستدل بها أن يكون مفحماً لمن يعارض الإعجاز العلمي في مجمله، لذلك حرص بعض المهتمين بالإعجاز البياني من المعاصرين على الإقرار بهذا النوع من الإعجاز العلمي على الرغم من احتراسهم الحذر من بقية الأنواع، ومنهم محمد رجب بيومي، الذي قال: «وإذا كانت بعض الآيات الكونية لا تزال في دور التطبيق الصريح، فإن أكثر الآيات الطبية قد وجدت من العلم نصيراً مجنداً، فأصبح من الإعجاز العلمي للقرآن قول الله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228] ونحو ذلك مما انبسط فيه مجال القول للمتخصصين، فكان إحدى معجزات القرآن الكريم»[41].

وقد تحدث القرآن كثيراً عن خلق الإنسان وربط ذلك بوظيفته ومصيره، لما في ذلك من تأصيل لمقصد الهداية، وكان في عرضه لأحواله وأطواره وقصة خلقه مظهراً للإشارات العلمية التي تزيد في دقة العبارة وأثرها النفسي والسلوكي والبياني، ومن أمثلة هذا التضافر بين العلم والبيان والدقة والهداية، تقديم السمع في أكثر آيات القرآن التي جمعته مع بعض الحواس الأخرى، لا سيما في طور نشوء الأجنة في الأرحام، لكون الجنين يتمتع بتوظيف حاسة السمع في الرحم، كما أنه أول ما يستخدمه من حواس بعد ولادته فقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]، يقول محمد الأرناؤوط: «إن حاسة السمع هي أولى الحواس على الإطلاق التي تبدأ عملها قبل ولادة الطفل ... وحالياً تجرى تجارب على تأثير الموسيقى على نمو الجنين ونشاطه وذكائه وقد

40- موريس بوكاي، المصدر السابق ص 223.

41- البيان القرآني، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط أولى، 2001، ص 204.

حققت نتائج مشجعة »[42].

كما أن السمع بلفظ الإفراد، والبصر بالجمع في أكثر مواضع ذكرهما في القرآن؛ « لأن السمع يأتي من جميع الجهات ولا يمنعه مانع ... وأما البصر فلابد فيه من القصد والإدراك التام ... فالسمع يكاد يكون واحداً بخلاف البصر، فإنه يتعدد بتعدد أحواله »[43].

وفي تعليل أمر القرآن باعتزال النساء في المحيض الآية 222 من سورة البقرة يقول عبد العزيز إسماعيل في دم المحيض: « إذ أنه مواد سامة يجب أن يتخلص منها الجسم، فإذا بقيت فيه أضرت به ضرراً بليغاً »[44]، وهو ضرر للرجل كذلك، فإذا تلوث به دمه سبب له الأمراض الخطرة مما قد يحدث عقماً فهو أذى للرجل والمرأة على السواء.

على أن الآيات التي فصلت مراحل تطور الجنين هي من أنصع الأدلة على احتواء القرآن على الحقائق العلمية الدقيقة فمن آية توضح استقرار البويضة بالرحم، كما لو كانت بذوراً في الأرض إلى أمد، في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الحج: 5] وتشبث العلقة بالرحم وهي طور مشروع الجنين المتطور عن نواته وهي النطفة، قال تعالى ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: 5] ويبين القرآن التحولات المتتالية للجنين بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: 14] وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: 67]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة: 37-38] يصور بوكاي تطور الجنين في الرحم في ضوء آية المؤمنون 14 بقوله: « تطور الجنين في الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوي هذا الوصف على أية مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها ... يمر بمرحلة المضغة أي اللحم الممضوغ ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمي الذي يغلف باللحم ... وبعد أن تشكل العظام تتغطى بالعضلات أو على العضلات توافق كلمة لحم، والمعروف أن بعض الأجزاء في أثناء مدة تطور الجنين تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد في المستقبل على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة ذلك هو

42- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ص 338.

43- أحمد أبوحجر، التفسير العلمي للقرآن: ص 473.

44- الإسلام والطب الحديث، القاهرة: ط 1957 ف، ص 485.

معنـى كلمة (مخلقة) وهي تعني مشكل بنسب»[45] يشير إلى قوله تعالى في آية الحج ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5].

واستقر في دائـرة الحقـيقة أن نوع الجنين ذكراً أم أنثى، يرجع في الحالتين إلى الأب، لأن المـني هو المصدر، حيث قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: 45-46]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾[القيامة: 37-39] ويتوافق العلم مع القرآن في الإنباء عن ظلمـة الـبطن والغشـاء الأمنيوسـي، وظلمـة الـرحم[46]، قـال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: 6].

ولقــد أثـبت عـالم الـوراثة جولي سيمون أن تقدير الإنسان يكون وهو في عالم الـنطفة[47]، كمـا قـال تعـالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عـبس: 17-19]، ولـثقة المسـلمين الباحثين في هذا العصر باشتمال القرآن على ملامح الإعجـاز العلمـي لاسـيما في الفلـك والطب والأحياء، فإنهم صاروا يعقدون المؤتمرات العلمـية في الإعجـاز العلمي للقرآن، وكان أولها المؤتمر الدولي عن الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، الذي عقد بالقاهرة في سبتمر 1986 ف، وقد حضره أكثر من 500 عالم من البلدان العربيــة والإسلامية وشخصيات عالمية أخرى، ناقشوا أكثر من 150 بحثاً في الإعجاز الطبي للقرآن الكريم، كعلوم الأجنة، ومراحــل التكوين، وعلم الوراثــة، والطب الوقائي، وعلم وظائف الأعضاء، والطب النفسي، والطب الشرعي[48].

وكان من المأمول أن يتفاعل العلماء المسلمون ومفكروهم مع الآيات المتضمنة للإشـارات العلمية، ويدركوا قبل غيرهم دلالة تلك الآيات على الإعجاز العلمي، ونفعها في الكشـف عـن الحقائـق العلمـية، ولكـنهم انشـغلوا بتحليل الألفاظ، والجدل الكلامي، والخـوض في الجـزئيات الفقهـية، ومن تخصص منهم في العلوم الطبيعية آثر النقل عن الآخـرين، ولم يسـلك طـريق الابـتكار والاسـتنباط مـن كـتاب الكـون المنظور، وآيات

45- بوكاي، المصدر السابق: ص 232.

46- سـليمان عمـر قـوش، الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم، الدوحة، دار الثقافة، ط ثانية (1415 /1995) ص 27.

47- المصدر نفسه ص 105.

48- المصدر نفسه ص 106.

الكتاب المسطور، ومع ذكاء روح الإيمان، ولبصيرة العلم صارت بعض العقول الإسلامية في عصرنا تنظر في دلالة القرآن على العلم، لا سيما وقد شاهدوا بعض العلماء غير المسلمين يقرون بذلك، ومن شواهد ذلك قول الدكتور كيث مور أستاذ علم التشريح، وأحد المشاهير المتخصصين في علم الأجنة: « إن تقسيمنا وتصنيفنا لأطوار الجنين لم يعرف إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وقد أعطيت مراحل وأطوار الجنين أرقاماً وأحرفاً أبجدية ... لكن الدراسات الحديثة المقارنة، وعلم الأجنة والقرآن والسنة أسفرت عن مصطلحات جديدة سهلة ونافعة، تجعل علم الأجنة ميسوراً وتقرب لنا هذا العلم »[49].

الإشارات العددية

إذا كانت الآراء تكاد تتفق حول دلالات الإعجاز في آيات مراحل التكوين وغيرها مما يشير إلى مجال الطب في الإنسان، فإن الخلاف يبلغ ذروته في مدى سلامة احتساب نوع آخر من الإعجاز العلمي، المتعلق بالعدد في القرآن أرقاماً مذكورة في الآيات، أو محاولات تقرير التناسب العددي بين دلالات القرآن من خلال كلماته، بل كانت حروفه أيضاً مجالاً لهذا النشاط، ولعل المنهج السوي، والجهد المنظم، يحقق النتائج التي تثبت حقيقة هذا الوجه الإعجازي الذي ما كان البحث فيه بدعة مستحدثة، فقد كان للصوفية وبعض الباطنية جهود في هذا السبيل، والمطلع على تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) يجد أنه ذكر فيه عدد كلمات وحروف كل سورة من سور القرآن قبل تفسيرها، وطبق في فهم دلالة بعض الآيات حساب الجمل، وهو ترجمة الحروف إلى أعداد، أو جمع الكلمات في السورة الواحدة ؛ لتدل على معنى مقصود من مضمون السورة، كدلالة سورة النصر عند نهاية كلمة (واستغفره)، على نهاية عمر النبي ﷺ، لأن ما قبلها من الحروف يساوي ثلاثة وستين حرفاً أو إحصاء الكلمات الواردة في سورة القدر، فيكون في ذلك تقرير إفادة أن ليلة القدر هي الليلة السابعة والعشرون من رمضان، إلى غير ذلك من التأويلات التي لا تخلو من التكلف، واستخراج نتائج ناجمة عن أحكام مسبقة، ومصدر ذلك هو تقديس بعض الصوفية والباطنية الإسماعيلية لأعداد محددة تمثل العدد 7 أو العدد 19، وهذا ما دفع أحد البهائيين من الباطنية أن يكرس جزءاً من حياته لهذا الغرض، وهو رشاد خليفة الذي

49- الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم ص 108.

شغل الناس بالعدد 19، وحاول أن يجعله أصل البناء في الإعجاز العددي، لأنه العدد المقدس عند البهائية، حتى ادعى علم الساعة، ثم قتل إثر ذلك بأمريكا.

وكان قد بدأ مخططه بأن البسملة تحوي تسعة عشر حرفاً بخط المصحف، فجعل ذلك منطلقاً بمضاعفات هذا العدد في مجموعة من السور، ووجد كلمات البسملة قد تكررت في القرآن أعداداً من المرات هي من مضاعفات هذا العدد، واستدل على أن الحروف النورانية في القرآن التي تبدأ بها بعض السور، تتكرر في سورها عدداً من المرات هي من مضاعفات العدد 19، وأوغل في التأويل حتى فسر دلالة العدد تسعة عشر بأنها الحروف التي تحرس القرآن، وتثبت سلامته من التحريف في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: 30] [50].

ولاشك أنه من المنظور الرياضي يمكن تطبيق لعبة المضاعفات على أي عدد آخر، لتحقيق محصلة مقصودة في النتيجة، فيمكن تطبيقها مثلاً على مقلوب دعواه بأن كلمة الرحمن تتكرر 57 مرة من مضاعفات العدد 19 × 3 = 57، فيمكن أن نقول بأنها من مضاعفات العدد 3 حين يضاف بالعدد 19، ويدعي أن كلمة الرحيم تتكرر 114 مرة من مضاعفات العدد 19 ست مرات[51] فلماذا لا تكون من مضاعفات العدد 6 تسع عشرة مرة؟.

ويحاول أن يبرهن على قدسية العدد 19 من تحميل آحاده معنى تمام العدد الرقمي، وعشراته بداية العدد الرقمي من 1 إلى 9 حيث إنهما طرفا مركبات الأعداد التي تبدأ من 1 وتنتهي بـ9، فيقول: « و لقد اختار سبحانه هذا العدد 19، لأنه يمتاز باحتوائه على البداية والنهاية للنظام الحسابي ... وكذلك العددان 9، 1 لا يقبلان القسمة ... إشارة إلى أن منزل هذا القرآن سورة إقرأ وهي 19 آية، ثم أعقبها بسورة المدثر ومنها قوله عليها تسعة عشر »[52].

وينطلق من بعض المسلمات في عدد الحروف كحرف ق في سورتي ق

50- عن كتاب ألوان من الإعجاز القرآني لمحمد وفاء الأيسري، حلب، مطبعة الشرق ط أولى 1401 ص 56، نقلها صاحب الكتاب من محاضرة لرشاد خليفة بعنوان « دلالات جديدة في إعجاز القرآن الكريم».

51- المصدر نفسه ص 56.

52- المصدر نفسه ص 56.

والشـورى، ليسـلكهما في بـرهنة المضاعفات للعدد 19، فمثلاً حرف (ق) الذي في أول سـورة ق يتكـرر 57 مـرة، وهـو مـن مضـاعفات العـدد 19، وتوجد ق أيضاً في سورة الشـورى تتكـرر أيضـاً 57 مـرة مـثل ما تقدم ومجموعها 114 مرة من مضاعفات 19، وهـذا العـدد نفسـه هـو عـدد سـور القرآن الكريم 114 سورة وهو أول حرف من كلمة (القرآن) [53].

بمـثل ذلـك يستطيع باحث آخر أن يبني على مضاعفات عدد ما أحكاماً أخرى تجعل للعدد الذي يختاره أهمية وقدسية، ففاتحة الكتاب وهي أم القرآن تحوي 7 آيات، والسـور الطـوال سبع، والسماوات والأرض سبع، والأبحر التي ذكرها الله في مدد كلماته سبع، وآخر سورة في ترتيب المصحف بالبسملة 7 آيات وهي سورة الناس، وجهنم لها سـبعة أبـواب، وهكـذا يأخـذ القاصـد إلى تأصيل أهمية هذا العدد باختلاف مضاعفات العـدد 7، وإن لم تنجح طريقة مضاعفة العدد، سيلجأ إلى طريقة أخرى من مثل ضرب العـدد 7، في عـدد أو مجمـوع أعـداد أخرى، ليربطه بعلاقة عددية في مجموع آيات أو سور أو كلمات حروف من القرآن، فاللعبة الرياضية واسعة.

ولقد صدق بعض الباحثين فرضيات رشاد خليفة حين انتشرت، وعلى الرغم من رجحـان فسـادها، فإنهـا دفعـتهم إلى الـبحث في منحى الإعجاز العددي، والوصول إلى فكـرة احتواء كلمات القرآن ونظامه الرقمي على تناسق رياضي فيه دلالة إعجاز، وكانت الانطلاقـة مـن الاستئناس على كمون الإعجاز العددي بالآيات التي تحث على استعمال الحسـاب وإن الله هـيأ لـنا بخلـق الشمس والقمر وحركة دورانها مقرونة بحركة الأرض، فتوقفوا كثيراً متأملين قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يـونس: 5]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: 12].

وقـد شـغلت ظاهـرة الحـروف المقطعـة (النورانـية) الـتي تصدرت بعض السور المفسـرين وعلماء القرآن، فهذا أبو بكر الباقلاني 403 هـ جعل ذلك من وجوه الإعجاز البيانـي فقـال: «و معنـى تاسـع وهـو أن الحـروف الـتي ينبنى عليها كلام العرب ثمانية وعشـرون حـرفاً، وعـدد السـور الـتي افتـتح فـيها بذكـر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملـة مـا ذكـر مـن هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة

53- ألوان من الإعجاز القرآني ص 57.

وهـو أربعـة عشـر حـرفاً، لـيدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحـروف التي ينظمون بها كلامهم»[54]، ثم فصل القول «التناسب في الذكر وتركه بين صـفات تلـك الحـروف ومـا يساويها من غير المذكور من أن الحروف المقطعة تحوي نصـف الحـروف المهموسـة مـن الأبجديـة العربية، ونصف الحروف المجهورة، ونصف الحـروف الحلقـية، ونصـف الحـروف غـير الحلقـية، ونصف الحروف الشديدة ونصف اللينة، ونصف المطبقة من الحروف»[55].

وكانـت تلـك التقسـيمات الاصطلاحية بعد نزول القرآن بل بأثر منه، فكانت من الإعجـاز البيانـي، ولعـل مقارنـة إحصـائية بـين السـور الثمانية والعشرين المبدوءة بتلك الأحـرف، وبقـية السـور مكـية ومدنية، تؤتي نتائج تؤكد هذا الوجه من الإعجاز، بما قد يكشـف عـنه من تناسب عددي بين آياتها وكلماتها وحروفها، وبمقارنة سريعة بين عدد الصـفحات بالمصـحف كلـه، وصفحات سورة الحروف النورانية، والسور الأخرى يظهر بـين القسـمين الـتعادل في عـدد الصـفحات، وهـذا مشـجع إلى مـزيد التعمق في إدراك التناسب في الكلمات والحروف وعدد الآيات.

ويأخذ القرآن بنظام الحساب العشري، وذلك في العديد من الآيات القرآنية، كما في قـوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ [الأنفـال: 65]، وقـوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: 142]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: 51]، وقوله تعـالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ [العنكبوت: 14]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قـوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاما﴾، قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ [المجادلة: 4] قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ [الأعـراف: 155]، قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: 4]، قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص: 23].

كمـا ذكـر الـرقم مائـة في آيات كثيرة، وكذلك الألف والألفان، والمائتان[56] في

54- إعجاز القرآن على هامش الإتقان السيوطي، بيروت، دار المعرفة د.ت 1 /82.

55- المصدر نفسه 1 /84.

56- وذكـرت 300 في الكهـف الآيـة 25 مقـرونة بتسـع، والـثلاثة آلف بآل عمران الآية 124، والخمسة آلاف بآل عمران 125.

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال: 65-66]، وفي هاتين الآيتين دلالة على عملية الضرب من العمليات الحسابية الأولية، ومنها كذلك دلالة على النسبة والتناسب بين 10:1 في الآية الأولى وبين 2:1 في الآية الثانية، كما دل القرآن الكريم على عملية القسمة من الأوليات الحسابية مجتمعة مع عملية الضرب بالتقابل من حيث النظر إلى نصيب الذكر في الضرب وإلى نصيب الأنثى في القسمة من قوله تعالى: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 176]، وصرحت آيات المواريث بسورة النساء على الكسور الاعتيادية التي دخلت في تشكيل عمليات فرضية معقدة، ما كان للعرب عهد بها، مما شجع التبحر فيها على تطور علم الحسابات لدى المسلمين في ضوء القرآن الكريم.

كما نطق القرآن الكريم بأصول الأعداد الأحادية جميعها من الواحد إلى التسعة[57] ونطق بأحد عشر قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: 4]، وباثني عشر قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: 36]، وبتسعة عشر في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [ا المدثر: 1000]، يقول عبد الرزاق نوفل وهو من الباحثين المهتمين بالأعداد في القرآن: «كما أورد القرآن كل أصول وحقائق العلوم المختلفة، فقد أورد كذلك الأعداد باعتبارها أصول علم الحساب»[58].

كما وردت أوصاف الأعداد من الأول إلى الثامن عدا السابع، وفي ترك ورود العدد 7 على صيغة اسم الفاعل إشارة تحتاج إلى تأمل. وأقصى ما أورده القرآن الكريم كميات الأعداد الخمسين ألفاً، والمائة ألف في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4] وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[الصافات: 147] ولعبد الرزاق نوفل محاولة لكشف إعجاز القرآن في مجال العدد لا نستطيع رفضها ولا التسليم بها، إلا بعد مراجعة معطياتها الأساسية على الحاسوب، وتوسيع تطبيقها على عينات أخرى من الآيات والكلمات والحروف القرآنية، فهو قد عمد إلى بعض الدلالات القرآنية المتلازمة أو المتقابلة وأحصاها فوجد نتائجها متساوية، مما يعطي ترجيحاً إلى

57- الآيات: 19 من سورة الأنعام، والآية 51 من النحل، و171 النساء، والآية 2 التوبة، والآية 22 من الكهف، والآية 54 من الأعراف، والآية 44 الحجر، والآية 17 من الحاقة، والآية 48 من النمل.

58- معجزة الأرقام والترقيم في القرآن الكريم، بيروت، دار الكتاب العربي (1403 /1982)، ص 58.

أن معنـى مثانية القرآن تتعلق بالدلالات المتضافرة على إبلاغ الهداية المقصودة بالقرآن، ومـن شواهد إحصائياته ما أورده بشأن بعض الألفاظ القرآنية بعد قوله: « وما كنت أدري أن التناسـق والاتـزان يشـمل كـل مـا جـاء في القرآن الكريم، فكلما بحثت في موضوع وجدت عجباً وأي.. تماثل عددي.. وتكرار رقمي »[59].

وقد دار بحثه حول 51924[60] لفظاً من القرآن، ومن شواهده قوله « لقد تكررت الدنيا والآخرة في القرآن الكريم 115 مرة ... وتكررت الآخرة نفس العدد أي 115 مرة، رغم أنهما لم يجتمعا في أكثر من حوالي 50 آية، وانفردت الدنيا في آيات، والآخرة في آيـات أخرى »[61]. ويوازن بين أعداد ذكر الملائكة والشياطين إفراداً وجمعاً، فيصل إلى نتيجة مؤداها: « وهكذا تساوى مرات ذكر الشياطين والملائكة »[62]، ويرى أنها تكررت في الدلالـتين 88 مـرة بالتساوي بينهما. ويقول في دلالتي الموت والحياة: « لفظ الموت ومشـتقاته قـد تكـرر 145، وهكـذا تكـرر لفظ الحياة ومشتقاته فيما يخص حياة الخلق 145 مرة »[63].

وفيما يلي جدول يقابل في العدد المساوي بين مجموعة من الدلالات، كما أثبتها نوفل في بحثه، والجدول لا يستوعب جميع ما تناوله، بل يقتصر على عينات منها[64]:

الدلالة	الدلالة المساوية	عدد التكرار المتساوي
البصر والبصيرة	القلب والفؤاد	148 مرة
النفع ومشتقاته	الفساد ومشتقاته	50 مرة
البعث ومشتقاته	الصراط ومشتقاته	45 مرة
السيئات	الصالحات	167 مرة
الجحيم	العقاب	26 مرة

59- الأنعـام 14، الـتوبة، 40، المجادلـة 7، الـنور 7، الكهـف 22، مـن مـثل قـوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: 22].

60- الإعجاز العددي للقرآن الكريم، بيروت، دار الكتاب العربي، ط خامسة، (1407 /1987) ص 2.

61- المصدر نفسه ص 7.

62- المصدر نفسه ص 9.

63- المصدر نفسه ص 18.

64- المصدر نفسه من ص 24 إلى ص 176.

اللعنة ومشتقاتها	الكراهية ومشتقاتها	41 مرة
الرجس	الرجز	10 مرات
الطهر	الإخلاص	31 مرة
الإيمان	العلم	811 مرة
الناس	الرسل	368 مرة
القرآن ومشتقاته	الوحي ومشتقاته	70 مرة
إبليس	الإسلام والاستعادة منه	11مرة
السحر ومشتقاته	الفتنة ومشتقاتها	60 مرة
المصيبة	الشكر	75 مرة
الاتفاق	الرضا	73 مرة
لفظ قل	لفظ قالوا	332
الحرب ومشتقاتها	الأسرى ومشتقاتها	6 مرات
الصلاة بمشتقاتها	أسماء الله الحسنى	99 مرة
الضيق ومشتقاته	الطمأنينة ومشتقاتها	13 مرة
الغضب ومشتقاته	الفاحشة ومشتقاتها	13 مرة[65]

وقد أخرج مفهوم التوافق العددي بين دلالات أخرى كثيرة مثل: الإسراف والسرعة والجبر والقهر، والخيانة والخبث، والكافرون والنار، والضالون والموتى، والمسلمون والجهاد، والدين والمساجد، والعقل والنور، والهدى والرحمة، والمحبة والطاعة، والرغبة والرهبة، والشجرة والنبات، وغيرها. وقد يتبع طريقة التضعيف، ولكن بصورة أقل تكلفاً مما فعل رشاد خليفة، من ذلك ما أورده بكتابه معجزة الأرقام: « تكرر لفظ الرحمن 57 مرة، وتكرر لفظ الرحيم 114 مرة أي أن الرحيم تكرر ضعف الرحمن، وتكرر الجزاء 117 مرة، وتكرر المغفرة 234 مرة، أي أن المغفرة ضعف الجزاء، وتكرر الأبرار ضعف ما تكرر الفجار، (الأولى 6 مرات والثانية 3 مرات) ...

65- معجزة الأرقام والترقيم: ص 54.

وتكرر اليسر ثلاث أضعاف العسر (36 مرة لليسر، 12 مرة للعسر)»[66].

وينظر إلى التوافق من منظور آخر في مفهوم الشهر والسنة واليوم: «الشهر قد تكرر 12 مرة أي بقدر السنة ... وأن اليوم قد تكرر أيضاً 365 مرة أي بقدر السنة، والأمثلة كثيرة، والمتساويات وفيرة»[67]، وتأويل دلالة الميزان بالتوازن[68] والاتزان التام في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: 17]، وأن الميزان بالكتاب تعلقه، وليس الميزان الذي تقاس به الأشياء[69].

وإذا سلمت هذه الحسابات العددية التوافقية من الخطأ، فإن فيها دلالة تعين على ترشيح مبدأ الوحدة المعنوية في القرآن ؛ لأن هذا التناسب العددي بالتكرار أو بالتضاعف أو بغيرها من العلاقات الرياضية، في كونه موزعاً على مساحة القرآن كلها يفيد بتوحيد دلالاته عددياً، وهو مؤشر دقيق على توحد معانيه ومقاصده البيانية، فإن نقصت منه كلمة أثرت في نظام ذلك التوافق، ونحن في حاجة إلى تأكيد هذه النتائج بالحاسب الآلي، ومراجعتها في موضوعية تامة، حتى يتبين لنا الأمر، وفي حال عدم تقررها لن يؤثر ذلك على اعتقادنا في سلامة النص القرآني وإعجازه، إذ ليس بالضرورة أن يتضمن هذا التوافق العددي وإن احتواه، فذلك من تمام إعجازه.

ويجدر التنبيه في نهاية حديثنا عن الإعجاز العلمي، أن التقارب بين حقائق العلم، وإشارات القرآن العلمية أصبح ملحوظاً بصورة أظهر مما كانت عليه في عصر المراغي وشلتوت ودروزه والخطيب والعقاد وغيرهم ممن تحفظ أو عارض الإعجاز العلمي، لتقدم البحوث المقارنة بين ما دلت عليه الآيات من إشارات، وبين بعض الحقائق العلمية لا سيما في الفلك والأحياء والطب، مما دفع ببعض أعلام تلك العلوم إلى الإقرار بكون القرآن وحياً من عند الله، بل اعتنق بعضهم الإسلام من أثر تلك الموافقة، يقول البروفيسور آرثر أليسون[70]: «الأبحاث التي أجريت في مجال (الباراسيكولجي) أكدت

66- معجزة الأرقام والترقيم ص 53.

67- المصدر نفسه ص 54.

68- الإعجاز العددي للقرآن الكريم: ص 168.

69- ولكن كلمة منصوبة مما يدل على أنها متعلقة بالفعل أنزل وليست من أوصاف الكتاب غير أن اجتماع الكتاب والميزان في نسق عبارة واحدة فيه إشارة إلى التوازن.

70- شغل منصب رئيس جمعية الدراسات النفسية والروحية في بريطانيا مدة 6 سنوات.

أن هناك شيئاً ما يخرج من الجسم يعود في حالة النوم، ولا يعود في حالة الموت، وكل هـذا قادنـا إلى هـناك علاقـة وثـيقة بين ما وجدناه من بحوث وبين القرآن الكريم»[71] ولهـذا قـرر أن يـدخل في الإسـلام، وتسمى باسم عبد الله أليسون[72]، وقد أسلم رئيس التشـريح والأجنة بجامعة شيانج ماي تايلند بعد أن حضر المؤتمر الطبي السعودي[73]، كما أشهر العالم البريطاني آرثر جيمس إسلامه انبهاراً بإعجاز القرآن[74].

ويقول كيث مور أستاذ التشريح وعلم الجنين في جامعة أتوا في كندا: «أنا أشهد بإعجـاز الله في خلـق كـل طـور مـن أطـوار الجـنين، وفي الوصف الدقيق الذي ورد في القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمداً أو أي شخص آخر يستطيع أن يعرف ما يحدث في تطـور الجـنين؛ لأن هـذه الـتطورات لم تكتشـف إلا في الجـزء الأخـير مـن القـرن العشـرين، وأريـد أن أؤكد أن أي شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين وتطوره داخل الرحم ينطبق بدقة على ما أعرفه أنا كعالم من علماء الأجنة البارزين»[75].

والله وعـد بإظهـار إعجاز كتابه في النفس والكون فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصـلت: 53]؛ وبعـد، فلـم يعـد الإعجـاز العلمـي في القـرآن مدفـوعاً عن الأذهان بدعوى غياب شـواهده مـن منطوق الآيات، فهو يتجلى بحكم تقدم العلم الذي لم يواكب بعد إشارات القـرآن إلا في بعـض مـنها، وصـار العلـم بحاجة إلى مزيد من التعمق في البحث حتى يصـل إلى حقائـق تفسر ظواهر كونية وحيوية في العالم والإنسان لا تزال مجهولة لدى رواد العلـوم البحـتة، ولم تعـد الإشارات العلمية معدودة في 750 آية، كما ذكر الباحثون المسـلمون في منتصـف القـرن الماضـي، بـل هـي تغمـر آيـات أكثـر مـن تلك الآيات المعدودات.

71- الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم لسليمان عمروش ص 7.

72- المصـدر نفسـه ص 5، والآيـة هـي قـوله تعـالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: 42].

73- المصدر نفسه ص 106.

74- المصدر نفسه ص 107

75- عدنان الشريف، من علم الطب القرآني، بيروت، دار العلم للملايين د.ت الزعر 42، ص 16.